

# الفصل الثالث

## نظام الأخلاق

وفيه المباحث التالية :

المبحث الأول: تعريف الأخلاق .

المبحث الثاني : خصائص نظام الأخلاق في الإسلام .

المبحث الثالث : عناية الإسلام بالأخلاق وأثرها في النفس البشرية .

## المبحث الأول

### تعريف الأخلاق

إن الكائن البشري عبارة عن مزيج من المشاعر والإحساسات وهو كائن حساس بطبعه ، ولذلك فهو سرعان ما يتأثر بكل ما حوله ، وكل من حوله ، مع اختلاف في التأثير الواقع عليه ، تبعاً لقوة المؤثر أو ضعفه ، وتبعاً لإيجابيته أو سلبيته، ثم إن هذا التأثير قد يستقر في نفس الشخص إما لقوته والمبالغة فيه ، وإمّا لتكراره والتعود عليه ، ويصبح جزءاً من النفس ، وصفة من صفاتها ، وبالتالي ينعكس هذا التأثير عملياً على سلوك وتصرفات هذا الفرد .

فقد يسخر الإنسان بحاله من أجل عمل الخير ، فنرى أن نتيجة هذا السخاء تنعكس على من أصابهم هذا الخير ، إما فرحاً وسروراً ، وإما دعاءً له وشكراً ، وإما شعوراً في نفسه هو بالرضا والراحة ، وإما حمداً من الناس وإعجاباً بهذا السخاء والكرم ، فيؤثر ذلك كله في نفس ذلك السخي ، ويستقر فيها ، فيتعوده ، أو يترجمه عملياً على تصرفاته وسلوكه ، بحيث يصبح ذلك السخاء والكرم من طبيعته وصفة له، فيعلم الناس ذلك منه ، ويصفونه بهذه الصفة التي رأوها فيه رأي العين .

ومن هذه المقدمة نستطيع أن نستنتج تعريفاً للأخلاق وكيفية توجيه البواعث الخلقية في

النفس الإنسانية :

### تعريف الأخلاق:

أ — الأخلاق في اللغة : هي جمع ( خُلُق ) وهو السجِّية<sup>1</sup> أي الخصلة التي يتصف بها الإنسان ، تقول فلان سجيته الصدق ، أي الصدق صفة فيه .

ب — الأخلاق في الاصطلاح هي : هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية<sup>2</sup> .

### شرح التعريف :

إن هذا التعريف يدل بوضوح على أن الأخلاق أمر فطري ، حيث خلق الله تعالى الإنسان ، وضمَّن نفسه كل ما تحتاجه من البواعث والضوابط التي يحتاج إليها في توجيه سلوكه وتصرفاته أثناء قيامه بتنفيذ أوامره ونواهيه بسهولة ويسر ، ذلك أن الأخلاق كما سنرى هي : ضوابط موجودة

1 - ابن زكريا : معجم المقاييس في اللغة مادة ( خلق ) .

1 - الغزالي : إحياء علوم الدين 53/3 .

داخل النفس الإنسانية ، يمكنها أن تتحكم في سلوك الإنسان وتصرفاته إيجاباً أو سلباً ، بحسب المؤثرات الواقعة عليها .

وعلى ذلك فالمقصود بقوله "هيئة" هو الصفة التي تكون عليها نفس الإنسان عند تعامله مع غيره من الناس ، فقد يُقال إن فلاناً كريم في تعامله مع غيره، أو أنه صادق ، أو محسن ، فالكرم والصدق والإحسان ، هي أخلاق قد يتصف بها أو بأحدها فرد معين ، فتكون صفة لنفسه ... ونفس هذا يُقال لو كانت هذه الأخلاق من الصفات السلبية ، كالكذب أو الغش أو الخيانة مثلاً .

والمراد بقوله "راسخة" أن مستقرة في النفس ، وهذا يعني أن الخلق جزء من مكونات النفس الإنسانية .

وأما النفس الإنسانية فالمقصود بها ذلك الجزء **المعنوي** في الكائن البشري، والذي هو عبارة عن خليط من المشاعر والرغبات والانفعالات والغرائز المودعة في فطرة الكائن البشري<sup>3</sup> .

وإذا عرفت ذلك : فإن الصفة الخلقية إذا رسخت واستقرت في نفس الكائن

البشري فإنها لا محالة — كما أسلفنا — تصبح جزءاً من هذه النفس ، أو هي جزء أصيل في هذه النفس ، يؤثر في تصرفات الفرد تلقائياً ، تماماً كما يؤثر فيها إحساسه بالجوع أو العطش ، حيث يتوجه إلى الأكل أو إلى الشرب عندما يشعر بالحاجة إليهما .

ومن خلال هذا التعريف يمكننا أن نستخلص المراحل التي يمر بها الكائن البشري حتى يعمل بمقتضى ما أودع في فطرته من أخلاق إيجابية أو أخلاق سلبية ، كما يلي :

### **مراحل توجيه الخلق في النفس الإنسانية إيجاباً أو سلباً:**

قلنا إن الأخلاق هي صفات فطرية أصيلة في النفس الإنسانية ، بغض النظر عن كونها إيجابية أو سلبية<sup>4</sup> ، ولكن قد يعمل الإنسان بمقتضى أحد هذين النوعين إما بالأخلاق الإيجابية أو الأخلاق السلبية ، فكيف يكون ذلك ؟

---

2- محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ص 104 .

1 - ليس من الغريب أن نقول أن النفس الإنسانية قد أودعت الأخلاق الإيجابية والأخلاق السلبية أصالة ، وهذا ليس تناقضاً ، بل هو تقابل في النفس الإنسانية من أجل حفظ توازنها، فلا أحد يستطيع أن ينكر أن الإنسان يحب ويكره ، وإنه يغضب ويرضى ويخل ويسخى ، ويجب نفسه كما يجب الجماعة التي يعيش فيها ، فهذا التقابل بين الحواس والمشاعر والرغبات ما كان إلا لحكمة أرادها الخالق — سبحانه وتعالى — وهي كما قلنا : حفظ توازن النفس البشرية ، فلا يحب الإنسان أكثر مما ينبغي ولا يكره أكثر مما ينبغي ، ويعيش الواقع بقدر ، والخيال بقدر مناسب ، و" إن من عجائب التكوين البشري تلك الخطوط المتقابلة المتوازنة ، كل اثنين منها

وللجواب على هذا السؤال نقول: إن المؤثرات الخارجية التي يتعرض لها الإنسان من مثل التربية أو الثقافة أو البيئة المحيطة، أو العوامل النفسية التي يتعرض لها كل هذه المؤثرات تعمل على إثارة الصفات الخلقية في النفس وذلك كما يلي:

## 1- التأثر بالخير أو الشر:

مرحلة مهمة في توجيه الخلق ، لأنها الأساس الذي يشكل ماهيته في النفس من حيث الإيجابية أو السلبية، وعليه، فيجب الحذر في هذه المرحلة من تأثر الفرد بالمواقف السلبية السيئة ، ويجب الحرص على مقاومتها، وعدم استقرارها في النفس، وهذا يتطلب من الفرد أن يكون دائماً قوياً الإرادة، لا يضعف أمام مواقف الشر، وحريصاً على مقاومة شهواته وأهوائه، وكل ما يمكن أن يتعرض له من تأثيرات قبيحة.

ومن أجل ذلك جاءت النصوص القرآنية الكثيرة التي تبين للإنسان مواطن ضعفه وكل ما يمكن أن يغريه ويؤثر عليه ، فيؤدي إلى الضعف والتخلق بأخلاق سيئة لا يرتضيها لنفسه .. فيبين له القرآن كل ذلك ليتقيه ويحذر منه ، وذلك من مثل قوله تعالى ﴿ **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا** ﴾<sup>5</sup> فهذه الآية تبين أن الإنسان مخلوق ضعيف، وهذه قاعدة عامة ، وعليه فإنه يجب أن يكون دائماً منتبهاً لهذا الضعف ، ويحذر أن يسوقه موارد الهلاك، وكذلك قوله تعالى ﴿ **مُرِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ** ﴾<sup>6</sup> فهذه الآية تبين أن النساء والبنين والأموال بأنواعها رغم إباحتها إلا أنها أمور مزينة في نظر ابن آدم ، وعليه فلا ينبغي له أن ينساق وراء زينتها ، فيتجاوز الحد الذي أبيضت من أجله ، فحب الإنسان للنساء إذا تجاوز الحد المشروع له فإنه يحوله إلى إنسان منساق وراء شهواته ، وقد يكسبه ذلك أخلاقاً رذيلة قد لا يرتضيها لنفسه ، وحب الفرد لماله إذا كان زائداً عن المباح فإنه يكسبه خلق البخل وغير ذلك .

---

متجاوران في النفس ، وهما في الوقت ذاته مختلفان في الاتجاه : الخوف والرجاء ، الحب والكراهة ... الخ كلها خطوط متقابلة ومتوازنة — وهي باختلافها في ذلك وتقابلها — تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة ... وفوق ذلك يحدث التوازن في داخل النفس ... " محمد قطب : المرجع السابق ص 126 ، 127 .

1 - سورة النساء، من الآية 28.

2- سورة آل عمران الآية 14.

وأيضاً قوله تعالى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾<sup>7</sup> وقوله تعالى ﴿فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُورُ﴾<sup>8</sup> حيث يحذر هذان النصان من صحبة السوء ومن الاستغراق في متاع الدنيا ولهوها ، لأن ذلك يغري الفرد باتباع شهواته وأهوائه ، وهذا ذروة أخلاق السوء ، وغير ذلك كثير في القرآن الكريم .

## 2. رسوخ الخير أو الشرف النفس الإنسانية واستقراره فيها :

وهذه المرحلة تتطلب أن يهتم الإنسان بما يتأثر به من مواقف الخير ، وأن يحرص على تكرار هذه المواقف على نفسه ، أو على النفس من يقوم بتربيتهم ، حتى تتأصل هذه المواقف في النفوس ، والعكس يكون في حالة التأثر بمواقف الشر ، فيجب الحرص على عدم تكرارها في النفس ، كي لا تتأثر بها ، فتتصف بصفات الشر، وكذلك يجب كبح جماح شهوات النفس وأهوائها ، وعدم التطرف فيها .

وعليه فقد جاءت النصوص التشريعية مطالبة بتكرار الأفعال الإيجابية ليعتادها الناس، فتستقر في نفوسهم ، ومن ذلك طلب الرسول ﷺ تعويد الأبناء على الصلاة في سن السابعة وقبل أن تكون مفروضة في حقهم، لترسخ في نفوسهم ، وتصبح جزء من سلوكهم وتصرفاتهم، فيتعودوها، ويواظبوا عليها، حيث قال ﷺ: "مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر"<sup>9</sup>.

هذا وقد وضع النبي ﷺ ما ذكرناه من أن تكرار الخلق حسناً كان أو سيئاً على النفس الإنسانية ، يؤدي إلى استقراره ورسوخه فيها وذلك بقوله ﷺ: " وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ... ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " <sup>10</sup> فتكرار الصدق يجعل المرء صادقاً عند الله ، بل إن حاله دائماً يكون الصدق ، فلو نظرت إلى قوله (صديقاً) فإنه صيغة مبالغة ، والمبالغة هنا تفيد التكرار ، وهذا يعني أن الصديق ما كان كذلك إلا لأنه يصدق باستمرار ، وفي كل الحالات ، ونفس هذا يقال في استخدامه للفظ (كذاباً) .

وقول الرسول ﷺ هذا ، يؤيد ما قلناه من أن تكرار الصفة الخلقية على النفس البشرية ، يطبع النفس بهذه الصفة ويسمها بها .

1 - سورة القيامة، الآية 14.

2 - سورة لقمان، من الآية 33.

3 - سنن أبي داود، 133/1، ح494، ح495، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، ح572.

1 - صحيح مسلم، 2013/4، ح2607.

### 3. انعكاس هذا الخلق على سلوك الإنسان وتصرفاته:

فالشخص لا يكون ذا أخلاق حسنة إلا إذا انعكس ذلك على معاملته مع نفسه ومع غيره ، فلا يمكن أن يتصف الإنسان (بالكرم) مثلاً ، من غير أن نرى أثر كرمه على شكل بذل وعطاء ، وإكرام للناس ، وكذلك لا يمكن أن نقول عن شخص بأنه (وقح) من دون أن تنعكس وقاحته على سلوكه.